حياة ابن الأعمى وشعره
قصيدته في ذمّ داره

د. لطفي منصور

ابن الأعمى هو كمال الدين عليّ بن المبارك الدمشقي الأديب الشاعر [1]، هكذا وصفه ابن شاكر الكتبي[2]، وأضاف أنه صاحب المقامة التي كتبها في الفقراء المجرّدين [3]، ونحن لا نعرف شيئا ذا قيمة عن هذه المقامة لأنها لم تصلنا، غير أن ابن كثير يقول إنها تدعى بالبحريّة وهي مشهورة [4]، ويضيف الذهبي إنها في وصف البحريّة [5].

لا نعرف الكثير عن حياة ابن الأعمى الخاصّة، فقد ولد سنة ست عشرة وستمائة [6]، وفي شبابه سمع الحديث وروى عن ابن اللّتي وغيره، وكان شيخا كبيرا من بقايا شعراء الدولة الناصريّة [7]، وانقطع آخر عمره مدرسّا بالمدرسة القليجيّة [8]، وكان مقرئا بالتربة الأشرفيّة، وتوفي في المحرّم سنة 692/ 1292 عن عمر طويل[9]. أما والده فهو الشيخ ظهير الدين الأعمى كان خطيب المسجد الأقصى.

أما عن نشاط ابن الأعمى الأدبي فيقول ابن كثير: كان شاعرا بارعا فاضلا، له قصائد يمتدح بها رسول اللّه (ص)، سمّاها الشفعيّة عدد كلّ قصيدة اثنان وعشرون بيتا سمعها الإمام البرزالي [10].

هذا مجمل ما نعرفه عن ابن الأعمى، أما شعره فقد ذهب أكثره ولم يبق لنا منه سوى مطوّلته في وصف داره بدمشق وأربع قصائد قصيرة أُخَر ذكرها ابن شاكر الكتبي ولم ترد عند غيره من المؤلفين الذين اطلعنا على كتبهم. وشعره في الجملة شعر طرائف لطيفة يبالغ فيها كثيرا، الا أنها لا تخلو من فكاهة تحبّب قراءتها.

لم يبق لنا من شعر ابن الأعمى الا بعض قصائد أثبتها لنا ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات)، وأشهر هذه القصائد ـ كما ذكرت آنفا ـ قصيدته في ذمّ داره، فقد تصرّف فيها ما شاء خياله فجاءت مليئة بالطرائف وذكر أنواع الحشرات: الزاحف منها والطائر وسائرالحيوان وكيف عانى منها شاعرنا في منزله الذي هو مسكنه، ويضع أمامنا صورة

لماكانت عليه المعيشة في المنازل في عصره، مع أن ابن الأعمى أخرج هذا الوصف مخرج المبالغة والتندّر والفكاهة.

تقع القصيدة في ستة وأربعين بيتا على البحر الكامل، وذكرت في دائرة المعارف بادارة فؤاد افرام البستاني، في مادّة » ابن الأعمى «، دون شرح أو تعليق. وهذه هي القصيدة:

1ـ دار سكنت بها أقلّ صفاتها   أن تكثر الحسرات من حشراتها [11]

انّ أقلّ صفات هذه الدار هو أنها تورث الحسرة والألم لما يسكنها من الحشرات. والحسرة هي أشدّ حالات الألم. وقد جانس الشاعر بين كلمتي » حسرات وحشرات « في الشطر الثاني من البيت.

2ـ الخير منها نازح متباعد   والشرّ دان من جميع جهاتها

هذا الطباق بين الخير والشرّ، والنازح والداني أعطى الوصف قوّة ومبالغة، فليس في هذه الدار خير يرجى أوناحية تكون أمانا من الشرّ الذي يكتنفها من سائر أرجائها. وهناك قول مأثور: الدار نصف السعادة. فأين هذه السعادة من دار الشاعر؟

3ـ من بعض ما فيها البعوضُ، عدمتُه!   كم أعدم الأجفانَ طيبَ سِناتها

البعوض أوّل داهية في هذه الدار، فقد استلّ لذيذ النوم من أجفان شاعرنا، فهويدعوعليه بالهلكة والعدم. قالوا البعوض على خلقةالفيل، الا أنه أكثر أعضاء من الفيل، فان للفيل أربع أرجل وخرطوما وذنبا، وللبعوض زيادة على هذا رجلان وأربعة أجنحة. وقد ورد ذكر البعوض في الشعر. قال الراجز:

مثل السفاة دائم طنينُها   رُكّب في خرطومها سكّينُها [12]

وما أحسن قول أبي الفتح البستي:

لا تستخفنّ الفتى بعداوة   أبدا وان كان العدوّ ضئيلا

ان القذى يؤذي العيون قليلُه   ولربما جرح البعوض الفيلا

وما ألطف ما قال بعضهم:

لا تَحقرنّ صغيرا في عداوته   ان البعوضة تدمي مقلة الأسد [13]

ويقال ان الله قد أهلك نمرودا بالبعوضة.

4ـ وتبيت تسعدها [14] براغيث متى   غنّت لها رقصت على نغماتها

البراغيث والبعوض يتعاوران الجسد قرصا ووخزا، واستعارة الغناء والرقص لعملهما فيه طرافة جميلة، فالبعوض يطنّ بذبذبة جناحيه، والبرغوث يوقّع بقفزه ووخزه.

وخاصيّة البراغيث اللسع والأذى. قال بعض الأعراب، وقد سكن مصر، في البراغيث:

تطاول في الفسطاط ليلي ولم يكن بأرض الفضا ليل عليّ يطول

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة وليس لبرغوث عليّ سبيل

ومن جميل القول ما قاله مجد الدين أبو الميمون الكَتّاني ملغزا في البراغيث:

ومعشر يستحلّ الناس قتلهم كما استحلّوا دم الحجاج في الحرم

اذا سَفَكْت دما منهم فما سَفَكَت يداي من دمه المسفوك غير دمي [15]

هذه براعة في القول ودقّة في الوصف، فالدم المسفوك من البرغوث ما هو الا دم الشاعر.

5ـ رقص بتيقيظ [16] ولكن قافه قد قدّمت فيه على أخواتها

هذا الرقص ليس رقصا مطربا، وانما هو قرص يبعد النوم ويزيد في اليقظة والأرق.

6ـ وبها ذباب كالضباب يسدّ عين الشمس ما طربي سوى غنّاتها

7ـ أين الصوارم والقنا من فتكها فينا وأين الأسد من وثباتها

بعد أن فرغ الشاعر من ذكر البعوض والبراغيث وفتكها ينتقل الى ذكر الذباب الذي يحجب ضوء الشمس لكثرته، وطنينه يسدّ سمعه وهو آلةطربه ولهوه، غير أن البلاء لا يقف عند هذا الحدّ وانّما يتعدّاه الى فتك أين منه فتك السيوف والرماح. ولا شكّ أن في هذا مبالغةكبيرة.

وقد ورد ذكر الذباب في القرآن الكريم كمثل للتعجيز ﴿ يا أيّها الناسُ ضُربَ مَثَلٌ فاستمعوا له، إن الذين تدعونَ من دون اللّه لن يخلُقوا ذُبابا ولو اجتمعوا له، وإن يَسلبْهم الذبابُ شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطَالبُ والمطلوبُ ﴾ (الحج 73). فهذه الآلهة لا تستطيع خلق ذبابة على صغرها وضعفها ولا استنقاذ ما يأكله الذباب منها، فالعابدون لتلك الآلهة ضعفاء والمعبودون أشدّ ضعفا.

وفي قراءتي لأخبار الحسن البصري (ت 110 ه) أنه بينما كان محتبيا في مجلسه وقعت ذبابة صغيرة في مؤق عينه، فحاول جاهدا دفعها بتحريك أجفانه فلم يفلح، واشتد أذاها به فحاول تحريك رأسه يمنة ويسرة، فذهبت جهوده عبثا واضطر أخيرا الى حلّ حبوته، والعرب لا تحلّ حبواتها الا لأمر عظيم، فقال الحسن: ان الله قد سلّط عليّ هذا الحيوان الحقير لأعتبر بضعفي أمام قدرة هذا الحيوان الضعيف الذي استطاع حلّ حبوتي.

وقد ذكر الجاحظ الذباب أو الذّبّان في حديث طويل [17]، وقال ان العرب تسمّي طنين الذبّان والبعوض غناء، وتمثّل بقول الأخطل يصف ثورا:

فردا تغنّيه ذِبّان الرياض كما غنّى الغواةُ بصنج عند أسوار

الصنج آلة موسيقيّة، والأسوار واحدالأساورة وهم قوّاد الفرس، أو قوم من العجم نزلوا البصرة قديما.

ومن أجمل ما وصف به الذباب وفعله قول عنترة في معلّقته:

جادت عليها كلّ عين ثرّة ... فتركن كلّ حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغنّي وحده ... هزجا كفعل الشارب المترنّم

غردا يحُكّ ذراعه بذراعه ... فعل المكبّ على الزناد الأجذم

8 ـ وبها من الخُطاف ما هومعجز ... أبصارنا عن حصر كيفياتها

9ـ تُعشي العيون بمرّها ومجيئها ... وتصمّ سمع الخلد من أصواتها

الخطّاف نوع من الطيور التي ترغب بالتقرّب من الإنسان يقطع اليه البلاد البعيدة ليعيش بجانبه، ويسمّى عند الناس عصفور الجنّة، ويتقوّت هذا الطائر بالذباب والبعوض [18].

وقد أحسن الشاعر وصف سرعة حركة الخطاطيف التي تُعشي العيون وأصواتها تسكّ أسماع الخلد، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش في أنفاق داخل الأرض لا يسمع ولا يبصر، وقد أخرج الشاعر كلامه مخرج المبالغة العظيمة.

10ـ وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها

11ـ شبهتها بقنافذ مطبوخـة ... نزع الطهاة بنضجها شوكاتها

12ـ شوكاتها فاقت على سمر القنا ... في لونها وتمامها وشياتهـا [19]

الخفاش حيوان لبون طائر ضعيف البصر، والظاهر أن اسمه مشتقّ من الخفش،وهو ضعف البصر، والأخفش في اللغة نوعان: ضعيف البصر خلقة،والثاني لعلّة حدثت [20]، وذكر الجاحظ أن اسم الخفاش يقع على سائر طير الليل [21]. والخفاش لا يطير في النهار ولا في الظلمة، ويبتغي بينهما سبيلا، والأغلب وقت غروب الشمس، غير أن خفافيش شاعرنا قد خرجت عن عاداتها فهي تواصل طيران الليل بالنهار، وكأن صورة جلدها منزوع الشعر قنافذ سلخ عنها جلدها وطرحت أشواكها التي تفوق الرماح حدّة ومضاء ورشاقة في اللون والاستقامة. وقد وصف أبو الشمقمق الشاعر نفسه في الغربة بالخفاش فقال: [22]

أنا بالأهواز محزو ... نٌ وبالبصرة داري

في بني سعد وسعد ... حيث أهلي وقراري

صرت كالخفّاش لا أبـــــْصرُ في ضوءِ النهار

وقد ألغز بعض الشعراء في الخفّاش: [23]

أبى شعراء الناس لا يخبرونني ... وقد ذهبوا في الشعر كلّ مذهب

بجلدة إنسان وصورة طائر وأظفار يربـوع وأنياب ثعلب

13ـ وبها من الجرذان ما قصرت عنه العتاق الجرد في حملاتها

14ـ فترى أبا غزوان منها هاربا وأبا الحصين يروغ من طرقاتها

الجرذان، جمع الجرذ، ذكر الفئران. وقيل هو ضرب من الفأر أعظم من اليربوع، أكدر في ذنبه سواد [24]. قال الجاحظ: الفرق بين الجرذ والفأر كالفرق بين الجواميس والبقر [25]. العتاق الجرد: الخيول كريمة الأصل ذات الشعر القصير، وقصر الشعر علامة عى أصالتها وكرمها، قال امرؤ القيس في معلّقته يصف جواده:

وقد أغتدي والطير في وُكُناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وأبو غزوان كنية الهرّ سمي بذلك لأنه يتمادى في غزو الهررة [26]. وبالرغم من شدّة صولة الهرّ وشدّة فتكه فهو يولّي هاربا من جرذان تلك الدار مع أنها صيده المفضّل. والهرّ حيوان أليف بيتيّ يأنس بالإنسان ويربّى في البيوت، ولا يعتبر نجسا كالكلب استنادا الى حديث رسول الله صلّى اللّه عليه وسلم (الهرّة ليست بنجسة، انما هي من الطوّافين عليكم والطوّافات) [27]. وقد ورد في الهرّ شعر كثير منه قول أحمد بن فارس اللّغوي(ت 395/ 1004) صاحب كتابي » الصاحب في فقه اللّغة » وقاموس » المجمل في اللّغة »:

اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوما يكون لها انفراج

نديمي هرّتي وأنيس نفسي دفاتر لي ومعشوقي السراج

وأين هذا الشعر ـ على جماله ـ من قصيدة الحسن بن عليّ العلاف في وصف هرّ، وهي مما رواه أحمد بن فارس أيضا، وقال عنها ابن خلّكان: وهي من أحسن الشعر وأبدعه. ويقال إنه كنى بالهرّ عن ابن المعتز الشاعر الخليفة المقتول على يد المقتدر، وتقع القصيدة في خمسة وستين بيتا [28]. واليك أبياتا منها:

ياهرّ فارقتنا ولم تعـد وكنت عندنا بمنزلة الولد

فكيف ننفكّ عن هواك وقد كنت لنا عدّة من العدد

تطرد عنا الأذى وتحرسـنا بالغيب من حيّة ومن جُرد

وتخرج الفأر من مكا منها ما بين مفتوحها الى السدد

وأبو الحصين كنية الثعلب، وهناك كنى أخرى له، وأما أنثاه فتكنى أمّ عويل، ويقال للذكر منه ثعلبان، وأنشد الكسائيّ عليه في وصف صنم كانت تعبده بعض قبائل العرب فجاء ثعلب وبال عليه:

أربّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب [29]

وجاء في الأمثال: "أروغ من ثعلب"، وقال بعض الشعراء:

كلّ خليل كنت خاللته لا ترك اللّه له واضحة
كلّهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

والواضحة هي السنّ الظاهرة، يدعو على خلانه بفضّ أسنانهم.

15ـ وبها خنافس كالطنافس أفرشت في أرضها وعلت على جنباتها
16ـ لو شمّ أهل الأرض منتن فسوها أردى الكماة الصيد عن صهواتها

الخنفساء دويبة سوداء أصغر من الجُعَل منتنة الريح، وقد ورد ذكرها في الحديث النبويّ والشعر، فقد روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال: « ليدعنّ الناسُ فخرَهم في الجاهليّة أو ليكوننّ أبغضَ الى اللّه تعالى من الخنافس ». وقال خلف الأحمر يهجو العتبيّ الشاعر [30]:

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير الخطا قليل الصواب
ألجّ لجاجا من الخنفساء وأزهى اذا ما مشى من غراب

أما الطنافس جمع طنفسة فهي نوع من البسط أو الحصر، وقد افترشت الخنافس دار الشاعر حتى غدت كالفِراش، ثم تسلقت حيطانها وغطّت كلّ شيء. وزاد في كمد الشاعر روائحها الكريهة وما ينبعث منها من نتن. والكماة جمع الكميّ وهو الرجل الشجاع أو لابس السلاح لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدرع والبيضة [31]. والصِيد جمع الأصيد وهو الرجل الذي يرفع رأسه من كِبر، فرائحة تلك الخنافس كفيلة بإلحاق الهزيمة بأعتى الفرسان.

17ـ وبنات وردان وأشكال لها مما يفوت العينَ كنهُ ذواتها
18ـ متزاحم متراكم متحارب متراكب في الأرض مثل نباتها

بنات وَردان تسمّى فالية الأفاعي، وهي دويبة تتولّد في الأماكن النديّة، وأكثر ما تكون في الحمّامات والسقايات، ويقول الدميري: منها الأسود والأحمر والأبيض والأصهب، وبيضها مستطيل [32]. وقد وصف بعض الشعراء بنات وردان فقال:

بنات وردان جنس ليس ينعته خلق كنعتي في وصفي وتشبيهي
كمثل أنصاف بُسر أحمر تُركت من بعد تشقيقه أقماعُه فيه

البسر التمر اذا لوّن ولم ينضج [33]. وزعم الجاحظ أن بنات وردان تخلق من جُمّار النخلة وفيها
ومن الأجذاع والخشب والحُشوش (بيوت الخلاء) [34].
ولتعدّد أشكال بنات وردان في دار الشاعر يحتار البصير في إدراك خواصّها، فهي لكثرتها متزاحمة

ومتراكبة ومتقاتلة ومتشابكة كنبات الأرض.

19ـ وبها قُراد لا اندمالَ له لا يفعل المشراط مثل أداتها

20ـ أبدا تمصّ دماءنا فكأنها حجّامة لَبَدَت على كاساتها

القُراد هو من الحشرات التي تمصّ دم ما يلصق به من الدوابّ وخاصّة الإبل، وفي الأمثال: ألزق من قُراد 35. والمشراط أداة الفصد. وقد أجاد الشاعر في تشبيه عمل القراد في امتصاص الدماء بعمل الحجّامة في إخراج الدم. وقد ساق الجاحظ شعرا كثيرا في القراد فلينظر في مكانه.

21ـ وبها من النمل السليمانيّ ما قد قلّ ذرّ الشمس عن ذرّاتها

22ـ لا يدخلون مساكنا بل يحطمو ن جلودنا، فالعقر من سطواتها

23ـ ما راعني شيء سوى وزغاتها فنعوذ بالرحمن من نزعاتها

النمل السليمانيّ هو المنسوب الى سيدنا سليمان كما جاء في الآية الكريمة ﴿ حتى اذا أَتَوا على واد النمل قالت نملة يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمانُ وجنودُه وهم لا يشعرون ﴾

غير أن نمل شاعرنا ليس كالنمل فقد فاقت ذرّاته ذرّات نور الشمس، وهو لا يفزع حتى يدخل مساكنه بل يحطم الجلود ويعقر الأبدان بشدّة سطوته. والوزغات والنزعات واحد وهو هنا شدّة السطو والعضّ. وقد عذّب اللّه أقواما بالنمل، فقد روى الجاحظ لأبي النجيم (36):

هلكوا بالرعاف والنمل طورا ثمّ بالنحس والضباب الذُكور

وقال الأصمعيّ في تسليط اللّه الذرّ على بعض الأمم:

لحقوا بالزهوَوين فأمسَوا لا ترى عُقر دارهم بالمبين

سلّط اللّه فارزا وعُقيفا نَ فجازاهم بدار شطون

فارز وعقيفان ضربان من الذرّ.

24ـ وبها زنابير تُظنّ عقاربا لا برءَ للمسموم من لدغاتها

25ـ وبها عقاربُ كالأقارب رُتّعا فينا حمانا اللّه لدغ حُماتها

المسموم الذي أصابه السمّ من لدغ وغيره، وتشبيه لسع الزنابير بلسع العقارب مسألة قديمة، ومن ذلك المسألة الزنبوريّة في النحو التي أجّجت نار الخصام النحويّ بين سيبويه رئيس نحويّي البصرة وبين الكسائيّ رئيس نحويّي الكوفة في حضرة يحيى بن خالد البرمكيّ، ونصّها هكذا « كنت أظنّ أنّ العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فاذا هو هي »، أو فاذا هو إيّاها بالرفع والنصب حسب رأي الكسائيّ.

والزنبور هي الدبر، وهي تؤنّث، والزنابير لغة فيها [37]. ومن الشعر الذي قيل في الزنبور:

وللزنبور والبازي جميعا   لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يصطاد باز   وما يصطاده الزنبور فرق !

وفي تشبيه الأقارب بالعقارب قرب من المثل العاميّ المعروف. وتوصف العقرب بالغدر والعداوة ولذا جاز قتلها للمحرم. قال أبو الطيب مشبّها لئام الناس بالعقارب:

إليكِ فاني لست ممّن اَذا اتّقى   عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

ومن جميل الشعر الذي قيل في العقرب:

وداري اذا نـام سكّانها   أقام الحدود بها العقرب
اذاغفُل الناس عن دينهم   فانّ عقاربَـها تضرب
فلا تأمننّ سُرى عقرب   بليل اذا أذنب المذنب

26ـ فكأنما حيطانها كغرابل   أطلعن أرؤسـهنّ من طاقاتها

الغرابل جمع الغربال على غير قياس، والأصحّ غرابيل. شبّه الشاعر خروق الجدران وثقوبها بفتحات الغرابيل تطلّ العقارب برؤوسها منها.

27ـ كيف السبيل الى النجاة ولا نجا   ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها
28ـ السمّ في نفثاتها والمكر في   فلتاتها والموت في لفتاتهـــا

ينتقل الشاعر الى وصف حيّات داره التي لا نجاة من لدغاتها، ويكاد مرآها المرعب يودي بالحياة، وقد جانس الشاعر بين الحياة والحيّات، وفي البيت الثامن والعشرين تفصيل جيّد وفقرات متساوية، فالنفثات والفلتات واللفتات كلّها صفات تدلّ على شراسة تلك الحيّات وخطورتها.

29ـ منسوجة بالعنكبوت سماؤها   والأرض قد نسجت ببصاقاتها
30ـ ولقد رأينا في الشتاء سماءها   والصيف لا تنفكّ من صعقاتها
31ـ فضجيجها كالرعد في جنباتها   وترابها كالوبل في خشباتهـا

العنكبوت دويبة تنسج في الهواء، وجمعها عناكب، والذكر عنكب، وكنيته أبو قشعم والأنثى أمّ قشعم. قال زهير في معلّقته:

فشدّ ولم يُفزع بيوتا كثيرة   لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم

ويعتبر بيت العنَكبوت من أوهن البيوت وأضعفها، جاء في القرآن ﴿ وإنّ أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوت ﴾، وورد في الشعر ذكر العنكبوت ومن ذلك بيت الفرزدق في هجاء جرير:

ضربت عليك العنكبوتُ بنسجها   وقضى عليك به الكتابُ المنزل

يشير بذلك الى الآية الكريمة التي ذكرت آنفا. والعنكبوت لا تبني بيوتها الا في الأماكن

المهملة وعلى الأخصّ في زوايا البيوت، وقد أراد الشاعر أن يصوّر مدى خراب داره التي يسكنها.

فقد تشقّق سقفها حتى بان السماء منها شتاء، ونزلت بشاعرنا الويلات صيفا، والضجيج والصخب يكتنف أرجاء الدار كالرعد القاصف،وأخشابها تآكلت فهي تهيل ما انسحق منها كوابل من تراب.

32ـ والبوم عاكفة على أرجائها والآل يلمع في ثرى عرصاتها
33ـ والنار جزء من تلهّب حرّها وجهنّم تعزى الى لفحاتها

البوم تأوي الى الأماكن الخربة الموحشة، وهو من طيور اللّيل، والناس يتطيّرون به. ومنه الهامة والصدى [38]. وجاء في أوابد العرب أن الإنسان اذا مات أو قتل تتصوّر نفسه في صورة طائر تصرخ على قبره مستوحشة لجسدها، والطائر الأسطوريّ هو ذكر البوم ويعرف بالصدى.وجاء في الحديث النبوي تكذيب لهذه الأسطورة في قول الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم « لا هامةَ ولا عدوى ولا طيرةَ » [38]. وقد ذكر الجاحظ أبياتا من الشعر في الهامة والصدى [39]، من ذلك:

فلا تزقُوَن لي هامةٌ فوق مرقب فانّ زُقاء الهام أخبث خابث

وقال توبة بن الحُميّر في معشوقته ليلى الأخيليّة:

ولو أن ليلى الأخيليّة سلّمت عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وأما الآل فهو السراب أو هو ما يشاهد في الضحى كالماء بين الأرض والسماء، وعرصة الدار ساحتها، وأكثر ما يرى الآل يلمع في الصحراء، وقد نسبه الشاعر الى داره لأنها قاحلة كالصحراء ولكونها تتوقّد حرارة كالنار، حتى أن نار جهنم تنتسب اليها وهذا من عظيم المبالغة.

ويعزو الشاعر داره الى القدم، فهي موجودة من قبل أن يتعرّف آدم على أمّنا حوّاء في جبل عرفة:

35ـ قد رُمّمت من قبل أن يلقى لآ دمَ أمّنا حــوّاء في عرفاتها
36ـ شاهدت مكتوبا على أرجائهَا ورأيت مسطورا على عتباتها
37ـ لا تقربوا منــها وخافوها ولا تُلقوا بأيديكم الى هلكاتها

ما كتب في نواحي الدار وما سطّر في مداخلها مقتبس من المعاني القرآنيّة السامية [40]. والشاعر

لا يكتفي بتحذير القادمين اليها بل يطلب منهم أن يلهجوا الى ربّهم بالدعاء حتى يبعد عنهم آفاتها ومصائبها:

38- أبدا يقول الداخلون ببابها يارب نجّ الناس من آفاتها

ويعرض الشاعر للغُراب وتشاؤم العرب به وكيف أنهم يؤمنون بأن نعيبه بَين وفراق وخراب، غير أن غربان داره رغم عددها الهائل ونعيبها المذهل لا تستطيع أن تفعل شيئا لتفريق الناس:

39- قالوا اذا ندب الغراب منازلا تتفرّق السكان من ساحاتها

40- وبدارنا ألفا غراب ناعق كذب الرواة فأين صدق رواتها

ماذا تبقّى للشاعر وقد قدّر له أن تكون تلك الدار، التي هي مأوى الجنّ، مسكنه ومأواه. لا سبيل له الا أن يتمسك بأهداب الصبر ويدعو ربّه أن يعتقه من نارها ولهيبها كما يعتق المؤمن الصالح من لفح جهنّم، فكم بات فيها منفردا لا يغمض له جفن مترقّبا بزوغ الفجر علّ في الضوء ما يؤنسه ويخفّف من وحشته وبلائه.

41- صبرا لعلّ اللّه يعقب راحة للنفس اذ غُلبت على شهواتها

42- دار تبيت الجنّ تحرس نفسها فيها وتنذر باختلاف لغاتها

فالجنّ تخاف من السكنى بها فهي تحرس نفسها من الأحطار المحدّقة بها، فيُنذر بعضها بعضا بشتى لغاتها المتعارفة بينها.

43- كم بتّ فيها مفردا والعين شو قا للصباح تسحّ من عبراتها

44- وأقول: يا ربّ السماوات العلى يا رازقا للوحش في فلواتها

45- أسكنتني بجهنّم الدنيا ففي أخراي هب لي الخلد في جنّاتها

46- واجمع بمن أهواه شملي عاجلا يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ان أمنية الشاعر أن يهب اللّه له نعيم الآخرة بعد أن أسكنه في جحيم الدنيا، وأن يجمع بالموت العاجل روحه مع أرواح أحبّائه. تلك أمنية الشاعر فهو يفضّل الموت على حياة في دار تلك صفاتها.

وبذلك تمّت القصيدة، وهي تعطينا - بالرغم المبالغات الكبيرة في الوصف - صورة تبيّن معاناة الناس في القرن السابع الهجري في مساكنهم ومدى تحمّلهم لأذى الهوام والحشرات والزواحف عامّة.

ولابن الأعمى مقطوعة طريفة في وصف حمّام ضيّق، وهي أيضا من القصائد التي تزوّدنا بمعلومات قليلة عن هذا النوع من المباني التي كان يستخدمها الناس للاستحمام والتطهّر للصلاة.

فبالإضافة الى ضيق الحمّام فهو شديد الحرّ ويخلو من الماء البارد، ممّا دفع بشاعرنا الى ذمّه فقال

من الخفيف [41]:

41 ـ انّ حمّامنا الّذي نحن فيه قد أناخ العذاب فيه وخيّم

2 ـ مظلم الأرض والسماء والنواحي كلّ عيب من عيبه يتعلّم

3 ـ حرج بابه كطاقة سجن يشهد اللّه من يجز فيه يندم

نفهم من هذه الأبيات أن الحمّام لم تكن له نوافذ للنور أو لتلطيف الجوّ، وبابه صغير ضيّق كطاقة السجن التي لا تسمح للضوء بالولوج الى داخله، فالظلام يكتنفه والحرّ يجعله جحيما، فأين هي الراحة مع العذاب، وأين الاسترخاء في الجوّ المكفهرّ، وكلّ من دخل هذا الحمّام لا يحصد الا الندم، لأن عيبه فاق كلّ عيب. وقد أحسن الشاعر في عبارتي: أناخ العذاب فيه وخيّم وكلّ عيب من عيبه يتعلّم، فتلك استعارات جميلة.

4 ـ وله مالك غدا خازن النا ر بلى مالك أرقّ وأرحم

لقد ورّى الشاعر بين كلمتي مالك الأولى ومالك الثانية. فالأولى صاحب الحمّام والثانية ملك النار وحارسها يوم القيامة الموكل بعذاب الشرّيرين، ويجعل الشاعر مالك النار أرحم من مالك الحمّام، ويعلّل قوله بالبيت الآتي:

5 ـ كلّما قلت أطلت عذابي قال لي اخسأ فيه ولا تتكلّم

وفي البيت الأخير يفزع الشاعر الى الدعاء والتماس رحمة اللّه أن يصرف عنه لظى نار جهنّم التي اشتمل عليها ذلك الحمّام:

6 ـ قلت لما رأيته يتلظّى ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم

ومن طرائف شعر ابن الأعمى مقطّعة في ذمّ حلاوة أرسلت له هديّة ولم تكن جيّدة، فقال من الخفيف [42]:

1 ـ انّ في صحنك المسمى حلاوه رقّة تورث القلوب قساوه

2 ـ كم حفرنا فلم نجد غير أرض الصحن يبسا كمثل أرض السماوه

هذا الطباق الجميل بين الرقة والقساوة يحمل معنى لطيفا، فظاهر هذه الحلاوة مغر يثير الشهيّة غير أنها صلبة تسلب الرحمة من القلوب، وقد أجاد الشاعر في تشبيه أرض الصحن بصحراء السماوة من أرض العراق.

3 ـ لست أدري من سكّر كان أم من عسل حين لم تَشُبه نَداوه

لم تشبه نداوة أي يابس يخلو من الطراوة.

4ـ غير أنّي رأيت صحنا صغيرا ما عليه من النعيم طلاوه
5ـ شبّهته العيون حين أتانا وجهَ مولودة عليه غشاوه
6ـ لا تكن تحسب الصداقة هذا ليس هذا صداقة بل عداوه

هكذا كانوا يستقبلون المولود اذا كان أنثى، فلم يجد الشاعر صورة أقبح من وجه صحن الحلوى المتيبس الا وجه مولودة علاه التكدّر، فكأنّ غشاوة أسدلت عليه، وهذا من عادة الجاهليين التي ذمّها اللّه سبحانه في كتابه بقوله [43]﴿ واذا بُشّر أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهُه مسودّا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به، أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾

وفي البيت الأخير من المقطّعة يصدر الشاعر حكمه على هدية صاحبه متندّرا، ويعتبرإحسانه اليه عداوة لا صداقة، فالهديّة يجب أن تكون من خير ما يمتلك الإنسان وإلا فلا حاجة اليها.

ولابن الأعمى قصيدة غزليّة من أعذب الشعر وأرقّه، وفي البيت الأخير منها يمدح الملك الناصر [44]، يقول من البحر الخفيف:

1ـ أنا في حالة النوى والتداني لست أثني عن الغرام عناني
2ـ لا يروم السلوّ قلبي ولا يفـــتر عن ذكر من أحبّ لساني
3ـ وسواء اذا المـودّة دامت نظري بالعيان أو بالجَنان
4ـ فاقتراب الديار لفظ وقرب الــودّ معنى، فاسلك سبيل المعاني

ان شاعرنا لن يتخلّى أبدا عن حبّه سواء في حالة قربه من حبيبه أو ابتعاده عنه بالهجر، فقلبه لا يعرف سلوان عشقه أو نسيانه، ولا يفتر لسانه عن ذكره، فالمهمّ بقاء المودّة ودوامها،عندئذ لا يسعده رؤية المحبوب سواء بعينه أم بقلبه. ثمّ يفلسف هذا ويقول ان اقتراب الديار بمثابة اللّفظ، أما قرب المودّة فهو بمثابة المعنى، وهو يريد أن يختار ويسلك طريق المعاني لأنها جواهر الأشياء.

5ـ لست ممّن يرضى بطيف خيال قانعا في هواهمُ بالهوان
6ـ انّ طيف الكرى دلّ على أن الكرى قد يلمّ بالأجفان
7ـ غير أنّي تشتاق عيني الى من حلّ من مهجتي أعزّ مكان

في البيت السابع يناقض ما قاله في البيت الثالث، ولكنّه علّل هذا بأنّ محبوبه حلّ من نفسه أعزّ مكان. والشاعر لا يكتفي بطيف حبيبه ولا يقنعه ذلك القليل لأنّ الطيف شيء وهميّ لا يدلّ الا على مداعبة الكرى للعيون.

8- وبروحي ظبيا تغار الغصون الـبـان منه ويخجل النيّران
9- ذو قَـوام يغنيه عن حمله الرمـحَ وجفن وسنانه كالسنان
10- كتب الحسن فوق خدّيه بين الـسماء والنار فيهما جنّتان

يفدي الشاعر معشوقه بروحه، ثمّ يأخذ في تعداد محاسنه ليجد عذرا لهذا العشق والغرام، فغصون البان تحسده على قوامه ورشاقته، ومن وضاءة وجهه تزوي الشمس والقمر وجهيهما خجلا، وقدّه المتشق يغنيه عن حمله الرمح، وعيونه الذابلة تعمل في الألباب ما يفعله السنان بالأجساد. والماء في البيت العاشر يعني صفاء الخدّين، والنار احمرارهما.

11- حرس الورد منهما نرجسَ اللحـظِ فلمْ سيّجوه بالريحان
12- عارض عوّذته ياسين لمـاّ أن تبدّى كالنمل أو كالدخان

جعل الشاعر ورد الخدود حرسا للعيون النرجسيّة، غير أن الورد من طبيعته أن يكون مسيّجا بالشوك لكيلا تمتدّ يد اليه، وسياج ورد الحبيب هنا من الريحان، وربما يقصد الشاعر بالريحان طول الأهداب. والعارض صفحتا الخدّين وهو هنا الشَّعر الذي يتدلّى على صفحتي الخدّين، ولكون المحبوب في ريعان الشباب اكتسب العارض لون السواد، فبدا كالنمل أو الدخان اسودادا. والتعوّذ بسورة ياسين دعاء للصّون والحماية. قال أحد الشعراء يصف بخيلا وقد نزل ضيفا عليه فضنّ بخبزه:

عوّذ لما بتّ ضيفا له أقراصه بخلا بياسين

13- يلبس الحسن كلّ وقت جديدا فلهذا أخلَقت ثوبَ التواني
14- يا خليليّ خلّياني ووجدي وامزجا لي بذكره واسقياني
15- واذا ما قضيت سكرا من الوجـد فلا تحزنا ولا تدفناني
16- فأيادي ذا الناصر الملك تحييـني كإحيائها الندى وهو فاني

والمعنى الإجمالي للأبيات الأربعة الأخيرة أن حُسن محبوب الشاعر وجماله في تجدّد مستمرّ، وهذا التجدّد يسلب من الشاعر صبره، وفي عبارة « أخلقت ثوب التواني » استعارة جميلة. ثمّ يخاطب الشاعر صديقيه ليتركاه وحيدا وجده بهذا المعشوق، وأن يمزجا له الخمر ويسقياه على ذكره، ويوصيهما بأن لا يحزنا عليه ولا يدفناه اذا أهلكه سكر الوجد بالمحبوب، لأنّه سوف يحيا ثانية على جود الملك الناصر(44) الذي تحيي أياديه الكرم والعطاء بعد الجدب والفناء.

وكتب الى الملك محمّد بن شاهنشاه الأيّوبيّ (45) يستهدي منه نطعا فقال من السريع:

1 ـ ياملكا قد خُلقت كفُّه للفرق بين الضّرّ والنفـع
2 ـ وملكا صيّرني عبدَه إحسانُه في القول والصنع
3 ـ وماجدا أنوارُ أسيافه مشرقة في ظُلَم النقــع

فهذا الملك خلقت كفّه لتفرّق بين ما ينفع الناس وما يضرّهم، فتزيد في نفعهم وتبعد عنهم الضرر والفساد، وقد أصبح الشاعر عبدا لإحسان الممدوح، في جميع ما يقول وما يصنع، وهذا يذكّرني بقول البستيّ:

أحسن الى الناس تستعبدْ قلوبَهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

انّه ملك صحب المجد يقاتل أعداءه وسيوفه مشهرة تلمع في دياجير غبار سنابك الخيل. وأين هذا من قول بشّار الأعمى:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وفي الأبيات التالية يعتمد الشاعر أسلوب السخرية من وضعه المعيشي وما هو عليه من فاقة وحالة لا يحسد عليها، فهو يبيت على الطوى وليس له من لهو أو تسلية الا الصفع، وحياته على وتيرة واحدة لا جديد فيها، حياة ضنك تدفع صاحبها الى التخلّص منها، لذلك كلّه يستهدي ممدوحه نطعا وجلّادا ليوصله الى الراحة الأبديّة. يقول:

4 ـ نحن بحمد اللّه في عيشــة مرضيّة بالعقـل والشرع
5 ـ اذا شبعنا بعد طول الطوى ليس لنا نقل سوى الصفع
6 ـ والشغل قد دار على رسمه والوقت محتاج الى النطع

وبعد، فهذا ما حصل لنا من شعر ابن الأعمى، ولا أعلم ان كان له شعر آخر في مصادر أخرى لم نطّلع عليها، رغم وفرة المراجع والمصادر التي بين يديّ التي أرّخت للقرن السابع الهجري الذي عاش فيه الشاعر، وأرجو أن أكون قد أسديت خدمة لعشاق الأدب والشعر القديمين.

الهوامش:

1 ـ يراجع: الذهبي، شمس الدين، العبر في خبر من غبر، (3: 379) ط 1، دار الكتب العلميّة، بيروت 1985.

2 ـ يراجع: الكتبي، محمّد بن شاكر، فوات الوفيات (3: 87) تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت 1974. وقد وقع خلاف في لقبه واسمه فقيل: الشيخ ظهير الدين محمّد بن المبارك بن سالم بن أبي الغنائم الدمشقي.

يراجع: ابن كثير، اسماعيل أبي الفداء، البداية والنهاية، (13: 333) ط 1، دار الكتب العلميّة بيروت 1421 / 2001.

3 ـ الكتبي، فوات، المكان نفسه.

4 ـ ابن كثير، البداية، المكان نفسه.

5 ـ الذهبي، العبر، المكان نفسه.

6 ـ ابن كثير، البداية، المكان نفسه.

7 ـ الكتبي، فوات، المكان نفسه. والدولة الناصريّة هي الدولة التي أسّسها السلطان الناصر صلاح الدين الأيّوبي.

8 ـ المصدر نفسه. والمدرسة القليجيّة كانت داحل البابين الشرقي وباب توما في دمشق، بناها مجاهد الدين محمّد بن قيلج، وقد ضاعت معالمها. يراجع: النعيمي، عبد القادر بن محمّد، الدارس في تاريخ المدارس 1: 434، ط 1، دار الكتاب الجديد، بيروت 1981.

9 ـ اتفقت جميع المصادر التي ذكرت آنفا على تاريخ وفاة ابن الأعمى وهو سنة 692 هجريّة. يراجع: ابن العماد، شهاب الدين الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (7: 736) دار ابن كثير، ط 1، بيروت 1991.

10 ـ ابن كثير، البداية، المكان نفسه.

11 ـ البستاني، فؤاد افرام، دائرة المعارف » حجراتها » 2: 344، بيروت 1958.

12 ـ الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان (3: 316) تحقيق عبد السلام محمّد هارون، دار الكتاب العربي، ط 3، بيروت 1969.

الدميري، كمال الدين محمّد بن موسى،حياة الحيوان (1: 205) » مثل السّفاة دائما طنينها »، دار التحرير للطباعة والنشر، 1966.

13 ـ الدميري، حياة الحيوان، 1: 212.

14 ـ البستاني، دائرة المعارف، المكان نفسه » تسعّرها »، أي تهيّجها.

15 ـ الدميري، حياة الحيوان 1: 205.

16 ـ البستاني، دائرة المعارف » بتنقيط ».

17 ـ الجاحظ، كتاب الحيوان 3: 315.

18 ـ نفسه: 3: 513.

19 ـ البستاني، دائرة المعارف: وقعت رواية الشطرين الأخيرين للبيتين الحادي عشر والثاني عشر كالتالي:

تدع الطهاة تضجّ من شوكاتها
فاعجب لشدّة فتكها وثباتها

20 ـ الدميري، حياة الحيوان 1: 518.

21 ـ نفسه: 1: 517.

22 ـ نفسه: 1: 533.

23 ـ نفسه: 1 532.

24 ـ نفسه: 1: 321.

25 ـ الجاحظ، كتاب الحيوان 5: 260. وانظر شعرا كثيرا في الفأر والجرذ في المصدر نفسه، منه قصيدة جميلة لأبي الشمقمق، هذا مطلعها:

ولقد قلت حين أقفر بيتي   من جراب الدقيق والفخّارة
فأرى الفار قد تحنّبن بيتي   عائذات منه بدار الإمارة

26 ـ البستاني، عبد الله، البستان، المطبعة الأمريكيّة، بيروت 1927، مادّة » غزا ».

27 ـ الدميري، حياة الحيوان 2: 63.

28 ـ تراجع دراسة بروفسور جورج قنازع الوافية للقصيدة المنشورة في مجلّة » الكرمل » التي تصدر عن قسم اللغة العربيّة في جامعة حيفا، العدد الحادي عشر لسنة 1990.

29 ـ الدميري، حياة الحيوان 2: 63.

30 ـ نفسه 1: 539.

31 ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة » كمي ».

32 ـ الدميري، حياة الحيوان 2: 702.
33 ـ نفسه 2: 702.
34 ـ الجاحظ، كتاب الحيوان 3: 371.
35 ـ نفسه 5: 431.
36 ـ الدميري، حياة الحيوان 2: 15.
37 ـ نفسه 2: 16؛ الجاحظ، كتاب الحيوان 2: 298.
38 ـ زغلول، محمّد السعيد، موسوعة أطراف الحديث النبوي (7: 292) ط 1، عالم التراث، بيروت 1989.
39 ـ الجاحظ، كتاب الحيوان 2: 299.
40 ـ سورة 2: 187 ـ 195.
41 ـ الكتبي، فوات الوفيات 3: 91.

42 ـ نفسه.
43 ـ سورة 16: 57 ـ 58.
44 ـ الملك الناصر هو محمّد بن قلاوون الصالحي. يراجع: ابن دقماق، ابراهيم بن محمّد العلائي، الجوهر الثمين 2: 114، عالم الكتب، ط 1، بيروت 1985.
45 ـ محمّد بن شاهنشاه بن بهرام شاه الأيّوبي (ت: 693 ه) يراجع: الكتبي، فوات الوفيات 3: 91، ملاحظة الهامش.